المجموعة

مؤلفات

مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة

دار الجيل
بيروت

Bibliotheca Alexandrina
0029987

مؤلفات
مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة
الموضوعة

يحتوي هذا المجلّد على :

النظرات
العبرات

دار الجيل
بيروت ـ لبنان

القسم الأول

النظرات

جميع الحقوق محفوظة

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

نشأته وحياتـــه

ولد السيد مصطفى لطفي بمنفلوط من أعمال محافظة أسيوط سنة ١٢٩٣ هـ — ١٨٧٦ م ونشأ في بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث اهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية قرابة مائتي سنة . ونهج المنفلوطي سبيل آبائه في الثقافة فحفظ القرآن في المكتب . وتلقى العلم بالأزهر ، ولكنه كان على الكره من ورع قلبه ورعاية أبيه لا يلقى باله كثيراً لغـــير علوم اللسان وفنون الأدب . فهو يحفظ الأشعار ويتصيد الشوارد ويصوغ القريض وينشىء الرسائل ، وتسير له شهرة في الأزهر بذكاء القريحة وروعة الأسلوب فيقربه الأستاذ محمد عبده ، ويرسم له الطريقـة المثلى إلى الغاية من الأدب والحياة . ثم يستفيد المنفلوطي من قربـــه إلى الإمام صلته بسعد باشا زغلول ، ومن زلفاه لدى هذين العظيمين نفوقـــه لدى صاحب (المؤيد) ، وهؤلاء الثلاثة كانوا أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد والده . وفي أثناء طلبه العلم في الأزهر نسب إليه أنه هجا الخديو عباس حلمي الثاني بقصيدة نشرها في إحدى الصحف الأسبوعية فحكم عليه من أجلها بالحبس وقضى في السجن مدة العقوبة . ولما قبض الله الإمام إلى رحمته جزع المنفلوطي فيه على رجائه وسنده ، وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده . ثم نعش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن ، فهب يبتغي في جريـــدة (المؤيد) الوسيلة والنجح . ثم صارت إلى سعد باشا وزارة المعارف فعينه محرراً عربيـــاً لها . ولما تحول إلى وزارة الحقانية (العدل) حوله معه وولاه فيها مثل مـــذا

المنصب . ثم انتقل الحكم إلى غير حزبه فنقل من عمله ، حتى إذا قام البرلمان عيّنه سعد باشا في وظيفة كتابية بمجلس النواب ظل فيها حتى توفاه الله وهو في العقد الخامس من عمره .

أخلاقه

كان المنفلوطي قطعة موسيقية في ظاهره وباطنه ؛ فهو مؤتلف الخلق ، متلائم الذوق ، متناسق الفكر ، متسق الأسلوب ، منسجم الزي ، لا تلمح في قوله ولا في فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز الفدامة . كان صحيح الفهم في بطء ، سليم الفكر في جهد ، دقيق الحس في سكون ، هيوب اللسان في تحفظ ؛ وهذه الخلال تظهر صاحبها للناس في مظهر الغبي الجاهل ، فهو لذلك كان يتقي المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة : ثم هو إلى ذلك رقيق القلب عف الضمير سليم الصدر صحيح العقيدة نقاح اليد موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وإنسانيته .

أسلوبه وأدبه

كان المنفلوطي أديباً موهوباً، حظ الطبع في أدبه أكثر من حظ الصنعة ، لأن الصنعة لا تخلق أدباً مبتكراً ولا أديباً ممتازاً ولا طريقة مستقلة ؛ وكان النثر الفني على عهده لوناً حائلاً من أدب القاضي الفاضل ، أو أثراً مائلاً لفن ابن خلدون ؛ ولكنك لا تستطيع أن تقول إن أسلوبه كان مضروباً على أحد القالبين ، إنما كان أسلوب المنفلوطي في عصره كأسلوب ابن خلدون في عصره ، بديعاً انشأه الطبع القوي على غير مثال .

عالج المنفلوطي الأقصوصة أول الناس وبلغ في إجادتها شأواً ما كان ينتظر ممن نشأه كنشأته في جيل كجيله . وسر الذيوع في أدب المنفلوطي أنه ظهر على فترة من الأدب اللباب . وفاجأ الناس بهذا القصص الرائع الذي يصف الألم ويمثل العيوب في أسلوب طلي وبيان عذب وسياق مطرد ولفظ مختار . أما

ضفة الخلود فيه فيمنع من تحقيقها أمران : ضعف الأداة وضيق الثقافة .. أما ضعف الأداة فلأن المنفلوطي لم يكن واسع العلم بلغته ولا قوي البصر بأدبها . لذلك تجد في تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ في غير موضعه . وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق ، ولم يتصل اتصالاً مباشراً بعلوم الغرب . لذلك تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة . وجملة القول أن المنفلوطي في النثر كان كالبارودي في الشعر : كلاهما أحيا وجدد ، ونهج وعبّد ، ونقل الأسلوب من حال إلى حال .

مؤلفاته ومترجماته

له كتاب (النظرات) في ثلاثة أجزاء جمع فيه ما نشره في المؤيد من الفصول في النقد والاجتماع والوصف والقصص . وكتاب (العبرات) وهو مجموع من الأقاصيص المنقولة والموضوعة . ثم (مختارات المنفلوطي) من أشعار المتقدمين ومقالاتهم . وقد ترجم له بعض أصدقائه عن الفرنسية : تحت ظلال الزيزفون (مجدولين) لألفونس كار ، وبول وفرجيني (الفضيلة) لبرنار دي سان بيير ، وسيرانودبرجراك (الشاعر) لادمون رستان ، فصاغها بأسلوبه البليغ الرصين صياغة حرة لم يتقيد فيها بالأصل ، فأضافت إلى ثراء الأدب العربي ثروة ، وكانت للفن القصصي الحديث قوة وقدرة .

عن كتاب تاريخ الأدب العربي
حسن الزيات

مقدمة

يسألني كثير من الناس كما يسألون غيري من الكتّاب : كيف أكتب رسائلي ، كأنما يريدون ان يعرفوا الطرق التي أسلكها إليها فيسلكوها معي ، وخير لهم ألا يفعلوا ، فإني لا احب لهم ولا لأحد من الشادين في الأدب ان يكونوا مقيّدين في الكتابة بطريقتي او طريقة احد من الكتاب غيري ، وليعلموا — إن كانوا يعتقدون لي شيئاً من الفضل في هذا الأمر — اني ما استطعت ان أكتب لهم تلك الرسائل بهذا الأسلوب الذي يزعمون انهم يعرفون لي الفضل فيه ، إلا لأني استطعت ان أنفلت من قيود التمثل والاحتذاء ، وما نفعني في ذلك شيء ما نفعني ضعف ذاكرتي والتواؤها عليّ وعجزها عن ان تمسك الا قليلا من المقروءات التي كانت تمر بي ، فقد كنت أقرأ من منثور القول ومنظومه ما شاء الله ان أقرأ ، ثم لا ألبث ان أنساه فلا يبقى منه في ذاكرتي الا جمال آثاره وروعة حسنه ورنة الطرب به ، وما أذكر أني نظرت في شيء من ذلك لأحشو به حافظتي او أستعين

بـه عـلى تهذيب بيـاني ، او تقويم لساني ، او تكثير مـادة علمي باللغـة والأدب ، بل كل ما كان من أمري أنني كنت امرأ احب الجمال وأفتتن به كلما رأيتـه في صورة الإنسان ، او مطلـع البـدر او مغرب الشمس ، او هجعة الليـل ، او يقظة الفجر ، او قمم الجبال ، او سفوح التـلال ، او شواطىء الانهار ، او أمواج البحار ، او نغمة الغناء ، او رنة الحداء ، او مجتمع الاطيار ، او منتثر الازهار ، او رقة الحس ، او عذوبة النفس ، او بيت الشعر ، او قطعة النثر ، فكنت أمر بروض البيان مرأ ، فـإذا لاحت لي زهرة جميلة بـين أزهاره ، تتألق في غصن زاهر بين أغصانه ، وقفت أمامها وقفة المعجب بهـا ، الحاني عليها ، المستهتر بحسن تكوينها وإشراق منظرها ، من حيث لا أريد اقتطافها او إزعاجها من مكانها ، ثم اتركها حيث هي ، وقد علقت بنفسي صورتها الى أخرى غيرها ، وهكذا حتى اخرج من ذلك الروض بنفس تطـير سروراً به ، وتسيل وجـداً عليه ، وما هو الا ان درت ببعض تلك الرياض بعض دورات ، ووقفت ببعض ازهارها بضع وقفات ، حتى شعرت اني قد بدلت من نفسي نفساً غيرها ، وان بين جنبي حالا غريبة لا عهـد لي بمثلها من قبل ، فاصبحت أرى الاشياء بعين غير التي كنت أراها بها ، وأرى فيها من المعاني الغريبة المؤثرة ما يملأ العين حسناً ، والنفس بهجة ، فقد كنت أرى الناس فرأيت نفوسهم ، وأرى الجمـال فرأيت لبـه وجوهره ، وأرى الخـير فرأيت حسنه ، وأرى الشر فرأيت قبحه ، وأرى النعماء فرأيت ابتساماتها ، وأرى البأساء فرأيت مدامعها ، وارى العين فرأيت السحر الكامن في

محاجرها ، وأرى الثغور فرأيت الخمر المترقرقة بين ثناياها ، وكنت أرى الشمس فرأيت خيوطها الفضية الراقصة في جو السماء ، وأرى القمر فرأيت شعاعه يهم ان يسيل على جوانبه سيلا ، وأرى الفجر فرأيت بياضه وهو يدب في تجاليد [1] الظلام دبيب المشيب في تجاليد الشباب ، وأرى النجوم فرأيت عيونها الذهبية على الكون من فروج قميص الليل ، وأرى الليل فرأيته وهو يهوي بأجنحته السوداء الى الارض هوى الكرى الى الأجفان ، وكنت أسمع خرير المياه فسمعت مناجاتها ، وحفيف الأوراق ففهمت نغماتها ، وتغريد الاطيار فعرفت لغاتها ؛ فاحببت الأدب حباً جماً ملأ ما بين جانحتي ؛ فلم تكن ساعة من الساعات أحب إليّ ولا آثر عندي من ساعة أخلو فيها بنفسي وامسك على بابي ثم أسلم نفسي الى كتابي فيخيل إليّ اني قد انتقلت من هذا العالم الذي أنا فيه الى عالم آخر من عوالم التاريخ الغابر ، فاشهد بعيني تلك العصور الجميلة ، عصور العربية الأولى ، وأرى العرب في جاهليتها بين خيامها وأخبيتها ، وأطنابها ، واعوادها ، وإبلها وشائها ، وشيحها وقيصومها ، وأرى مساجلاتها ومنافراتها ، وحبها وغرامها ، وعفتها ووفاءها ، وصبرها وبلاءها ، وحداءها وغناءها ، وأسواق شعرائها ، ومواقف خطبائها ، وفقرها وإقلالها ، وشحوب وجوهها ، وسمرة ألوانها ، وضوى أجسامها وترددها في بيدائها بين حمارة القيظ [2] وصبارة البرد [3] ، وتنقلها من صحراء الى ريف ، ومن مشتى الى مصيف ، ومن نجد الى وهد ، ومن

(١) التجاليد : الجسم . (٢) شدة الحر . (٣) شدة البرد .

شرف الى غور ، وانتجاعها مواقع الغيث ، ومنابت العشب ، وقناعتها من الطعام بأحفان التمر وقعاب اللبن وأصواع الشعير ، فاذا جد الجد أكلت القد [1] واشتوت الجلد ، وتبلغت بالضب واليربوع ، وعراقيب الآبال ، وأظلاف الابقار ، واكتفت من اللباس بأكسية الكرابيس وأردية الاشعار ، وقمص الاوبار ، فاذا أعوزها ذلك لبست الظل ، وافترشت الرمل ، غير ناقمة ولا ساخطة ، ولا متبرمة بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده ، ولا باكية حظها من رخاء العيش ولينه ، ثم أراها بعد ذلك وقد أنعم الله عليها بنعمة المدنية الإسلامية فأرى رغد عيشها ، ولين طعامها واعشوشاب جانبها ، وعذوبة مواردها ومصادرها ، وسرورها وغبطتها بما أفاء الله عليها من ذخائر الفرس واعلاق الروم ، وامتلاء قصورها باللؤلؤ المنظوم من القيان ، واللؤلؤ المنثور من الولدان ، وأرى مجالس غنائها ، ومجامع أنسها ، ومسارح لهوها ، ومجالات سبقها ، وملاعب جيادها ، ومذاهب طرائدها ، ومواقف حجها ، وازدحام شعرائها على ابواب أمرائها ، وجوائز أمرائها في ايدي شعرائها ، وانطلاق ألسنتها بوصف ما تشاء من الاعواد والبرابط والمعازف والمزاهر والاقداح والدنان والموائد والصحف ، وألوان الطعام حلوه وحامضه ، وأصناف الشراب حلاله وحرامه ، والطيور المحلقة في الأجواء ، والسفن الذاهبة في الدأماء [2] ، والرياض الخضراء والغابات الشجراء ، والقصور وتماثيلها ، والبحيرات واسماكها ، والانهار

(١) السير يقد من جلد . (٢) الدأماء : البحر .

وشواطئها ، والازهار ونفحاتها ، والغيوث وقطراتها ، ودبيب الحب في القلب ، والغناء في السمع ، والصهباء في الاعضاء ، وخلجة الشك ، ولمحة الفكر ، وبارقة المنى .

ثم لا أشاء ان أرى بين هذا وذاك خلقاً عذباً ، او أدباً غضاً ، او حباً وفياً ، او مجوناً مستظرفاً ، او حوراً مستملحاً ، الا وجدته ؛ ولا ان اسمع ما تهتف به العاتق في خدرها ، وما يحدو به الحادي في اعقاب إبله ، وما يتغنى به العاشق ، وما يهذي به الشارب ، وما يترنم به الشادي ، وما يساجل به الماتح [1] الا سمعته . ولا ان اعلم ما يهجس في نفس المحب اذا اشتمل عليه ليله ، والحائر اذا ضل به سبيله ، والثاكل اذا فجعت بواحدها ، والموتور اذا حيل بينه وبين واتره ، والكريم اذا لاح له منظر من مناظر البؤس والشقاء ، والغريب في دار غربته ، والسجين بين جدران سجنه ، والخائف اذا وقف بين الرضا والغضب ، والمقدم للقتل اذا وقف بين الرجاء واليأس ، والبائس اذا أعوزه القوت ، واليائس اذا أعوزه الموت ، والعزيز اذا ذل ، والمشرف اذا هوى ، والشريف اذا عبث بشرفه عابث ؛ والغيور اذا لمس عرضه لامس ، الا علمته ، ولا ان اعرف خلق الدهر في تنقله بالناس ما بين رفع وخفض ، وجدة وفقر ، ونعيم وبؤس ، وإقبال وإدبار ، ولا اثر يده السوداء في خراب القصور ، وخلاء الدور ، وإقفار المغاني ، وتصويح الرياض ، الا عرفته ؛ فكنت اجد في نفسي من اللذة والغبطة بذلك ما لا يقوم به عندي كل ما ينعم به

(١) الماتح : المستقى على البئر .

الناعمون من رغد في العيش ورخاء حتى ظننت ان الله سبحانه وتعالى قد صنع لي في هذا الأمر ، وانه لما علم انه يكتب لي في لوح مقاديره ما كتب للسعداء والمجدودين من مال او جاه اعيش في ظله ، وانعم بثمرته زخرف لي هذا الجمال الخيالي البريء من الريبة والإثم ، وزوّره [1] لي تزويراً بديعاً ووضع لي فيه من الملاذ والمناعم ما لم يضع لغيري . رحمة بي وإرعاء على ان اهلك ، او يهلك لي بين اليأس القاتل ، والرجاء الكاذب ، وهكذا لا ازال محلقاً في هذا الجو البديع من الخيال اضحك مرة واكتئب أخرى ، وأتغنى حيناً وابكي احياناً حتى يرميني الباب ببعض الطارقين او يستعيد إليّ نفسي مستعيد .

ولم يكن حولي لذلك العهد ممن يستعين بمثلهم مثلي على الأدب احد ؛ لأنني كنت اعيش في مفتتح عهدي به — ولم اكن زاهيت إذ ذاك الثالثة عشرة — بين اشياخ ازهريين من الطراز القديم لا يرون رأيي فيه ، ولا يتعلقون منه بما اتعلق فكانوا يرون ان التوفر عليه او الإلمام به عمل من اعمال البطالة والعبث ، وفتنة من فتن الشيطان ، فكان الذين يتولون أمري منهم لا يزالون يحولون بيني وبينه ، كما يحول الأب بين ولده وبين ما يعرض له من فتن الهوى ونزعات الصبوة ضناً بي — يزعمون — ان انفق ساعة من ساعات دراستي بين لهو الحياة ولعبها ! فكنت لا استطيع ان ألم بكتابي الا في الساعة التي آمن فيها على نفسي ان يلموا بأمري — وقليلا ما كنت اجدها — وكثيراً ما كانوا يهجمون مني على ما لا يحبون

(١) زوره : حسنه وقومه .

فاذا عثروا في خزانتي او تحت وسادتي او بين لفائف ثوبي على ديوان شعر او كتاب أدب خيل إليهم انهم قد ظفروا بالدينار في حقيبة السارق ، او الزجاجة في جيب الغلام ، او العشيق في خدر الفتاة ، فأجد من البلاء بهم والغصص بمكانهم ما لا يحتمل مثله مثلي ؛ وهم لا يعلمون — احسن الله إليهم — انهم وجميع من يدور به جدار مسجدهم حسنة من حسنات الأدب الذي ينقمون منه ما ينقمون ، ويد من اياديه البيضاء على هذا المجتمع البشري ؛ فلولا الأدب ما استطاع أئمتهم المجتهدون فهْم آيات الكتاب المنزل ولا استنباط تلك الأحكام التي دوّنوها لهم وتركوها بين ايديهم يستغلونها كما يستغل المالك ضيعته ويعيشون في ظلها عيش السعداء المترفين ، ولولاه لما استطاع علماؤهم اللغويون ان يورثوهم هذه العلوم اللغوية التي يدرسون اليوم نحوها وتصريفها وبيانها في مجالس علمهم ، ويدلون بمكانهم منها على الناس جميعاً ، كما يعلمون ان الأدب هو خير ما يستعين به متعلم على علم ، وان الذوق الأدبي الذي يستفيده المتأدب من دراسة الأدب ومزاولته هو الميزان الذي يزن به مايحاول فهمه من عبارات العلوم واساليبها ، والدليل الذي يتسمته ويترسم مواقع اقدامه في فهم اصول الدين ليكون مجتهداً ان استطاع او واقفاً على منازع المجتهدين ، واللسان الذي يستعين به على الإفضاء بادق اغراضه واعمقها واقصاها مكاناً من قلبه ليكون إنساناً ناطقاً ، ومعلماً نافعاً ، ولو ان هؤلاء الزارين على الأدب من علماء الدين وشيوخه — وهم اليوم والحمد لله قليل ، بل هم في طريق الفناء والانقراض — قد تعلقوا منه بما كان يتعلق

فكان شأني في ذلك شأن السامع الطروب الذي تطربه نغمة وتزعجه أخرى ، فيطير بالاولى فرحاً وبالثانية جزعاً ، وقد يكون ضعيف الإلمام بضروب الإيقاع وقواعد النغم ، فكنت لا أقرأ الا ما أفهم ، ولا أفهم الا ما أشعر انه قد خرج من فم قائله خروج السهم من القوس ، فاذا هو في كبد الرمية ولبها ، فان رأيت ان المعنى قد قام دونه ستار من التراكيب المتعاظلة ، والاساليب الملتوية ، علمت ان القائل إما ضعيف المادة اللغوية فهو يعجز عن الإفضاء بما في نفسه لأنه لا يعرف كيف يفضي به ، وإما جاهل لم يستو له المعنى الذي يريده كل الاستواء ولم يدر في جوانب نفسه حتى يستقر في قراره منها ، فهو يتوهمه توهماً ويجمجمه جمجمة ويهذي به هذياناً فلا سبيل له الى الإفصاح عنه ، وإما داهية محتال قد علم ان المعنى الذي يجول في نفسه ويتردد في خاطره تافه مرذول وكان لا بد له ان ينفقه [1] على الناس ويزخرفه لهم ويزوره [2] في اعينهم ، فهو يكسوه اسلوباً غامضاً ليكدهم ويجهدهم في سبيله حتى اذا ظفروا به بعد ذلك خيل إليهم انهم قد ظفروا بمعنى غريب ، او خاطر بديع ، ووجدوا فيه عند الوصول إليه من اللذة والمتعة ما يجد الظامىء في ضحضاح [3] الماء الكدر اذا أبعد النجعة في طلبه ووصل إليه بعد الجهد والإشقاء ، وإما عاجز ضعيف القوة النفسية قد علم ان ضعفاء الافهام من الناس ، وهم سواد الامة ودهماؤها ، لا يرضون عن معنى من

(١) ينفقه - بالتشديد - يجعله نافقاً ؛ أي رائجاً .

(٢) زور الشيء : حسنه وزخرفه . (٣) الضحضاح : الماء القليل في قعر البئر .

المعاني ولا يستسنون [1] قيمته ولا يقيمون له وزناً الا اذا جاءهم في جلدة من الالفاظ المتكرسة المتقبضة ، وانهم اذا ورد عليهم أثمن المعاني واغلاها، واكرمها جواهراً واطيبها عناصراً في ثوب من الاساليب الرقيقة الشفافة ذهب بهم الوهم الى انه ما جاءهم على هذه الصورة الا لأنه ساقط مبتذل ، او سوقي مطروق فاحتقروه وازدروه ، وكان يرى لضعف حيلته وسقوط همته . ان لا بد له من موافاة رغبتهم وبلوغ رضاهم ، والنزول على حكمهم ، فتجمل لهم باللكنة والعي ! وتملقهم بالغموض والإبهام . وإما أعجمي يظن ان اللغة العربية حروف وكلمات وهو لا يعرف منها غيرهما فينطق بشيء هو اشبه الاشياء بما يترجمه بعض المترجمين من اللغات الاعجمية ترجمة حرفية ، فان نعيت عليه غرابة اسلوبه واستعجامه والتواءه على الفهم كان مبلغ ما ينضح به عن نفسه ان المعاني العصرية والخيالات الحديثة لا يستطاع إلباسها الاكسية البدوية ، والاردية العربية ، كأنما هو يظن ان المعاني والخواطر خطط وأقسام ، وأنصبة وسهام ، هذا للشرق وهذا للغرب ، وهذا للعرب وهذا للعجم ! أما الحقيقة التي لا ريب فيها فهي ان الرجل لا ينتزع تلك المعاني من قرارة نفسه ولا يصور فيها صورة عقله . وإنما هو مترجم قد عثر بتلك المعاني في اللغة الاعجمية التي يعرفها لاصقة بأثوابها الاصلية ، فلما أراد ان يفضي بها الى العرب ، وكان غير مضطلع بلغاتهم ولا متمكن من اساليبهم عجز عن ان ينزع عنها اثوابها اللاصقة بها فنقلها إليهم كما هي الا ما كان

(١) استسنى قيمته : رآها سنية رفيعة .

من تبديل حرف بحرف او لفظ بآخر من حيث يظن انـه يهتف بشيء قام في نفسه او يفضي بخاطر من خواطر قلبه ، وإمـا شحيح يأبى له لؤم نفسه وخبث فطرته ان يمنح الناس منحته سائغة هنيئة دون ان يكدرها عليهم بالمطل والتسويف والمدافعة والمحاولة . والشح خلق اذا نزل منزله من نفس صاحبه اقام من نفسه حارساً يقظاً على كل حاسة من حواسه الباطنة والظاهرة حتى لا يجد فيه واجد مصطنعاً ولا يظفر منه متعصر ببلة . فيضن بعلمه كما يضن بماله ، ويقبض لسانه عن النطق كما يقبض يده عن الإنفاق ويصرد [1] عطاءه تصريداً ليستديم حاجة الناس اليه كما يجيع كلبه ليتبعه ، ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين على العجزة والجاهلين والمحتالين والكاذبين والاشحاء والباخلين .

وكان أشعر الشعراء عندي وأكتب الكتاب ـ سواء في ذلك المتقدم والمتأخر والنابه والخامل ـ اوصفهم لحالات نفسه او أثر مشاهد الكون فيها ، وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويراً صحيحاً كأنما هو يعرضه على انظارهم عرضاً ، او يضعه في أيديهم وضعاً ، فان ظننت ان القائل كاذب فيما يقول او انه يرسم صورة غير الصورة التي تتلجلج في نفسه ، او انـه لغوي يفر من ضعف اسلوبـه وفساد نظمه الى أكمة من الألفاظ الغريبة والتراكيب المستوعرة يكمن وراءها ، او ناقـل يتخـذ الكتابة حقيبة يحشوها بالمسائل العلمية والوقائع التاريخية حشواً ، او مترجم ينقل عن اللغـة الاعجمية الـتي يعرفها آراء علمائها وكأنما هو

(١) صرد العطاء : أعطاه قليلاً قليلاً .

صاحبها ، او شعرت انه قد قدر في نفسه ، وهو يكتب كلمته ان يكون بليغاً فيها او مبدعاً ليعجب الناس منها ، وكان كل حظه عندي ان أعرف له قدره في العلم ومنزلته من الذكاء والفهم ان احسن فيما يقول ، ولكنني لا أعده كاتباً ولا شاعراً ، لذلك كان أغزل الغزل عندى غزل العاشقين ، وفضل الرثاء رثاء الثاكلين ، وأنبل المدح مدح الشاكرين ، وأشرف العظات عظات المخلصين ، وأجمل البكاء بكاء المنكوبين ، واحسن الهجاء هجاء الصادقين ، وأبرع الوصف وصف الرائين المشاهدين .

ولا أدري ما الذي كان يعجبني في مطالعاتي من شعر الهموم والاحزان ، ومواقف البؤس والشقاء ، وقصص المحزونين والمنكوبين خاصة ، فقد كان يعجبني كثيراً ويبكيني أحر بكاء وأشجاه شقاء المهلهل في الطلب بثار أخيه ، وشقاء أمرىء القيس في الطلب بثار أبيه ، وبكاء جليلة أخت جساس على زوجها وأخيها ، وبكاء عدي بن زيد على نفسه في سجن النعمان ، وبكاء متمم بن نويرة على اخيه مالك حتى دمعت عينه العوراء ، وبكاء ليلى بنت طريف على أخيها الوليد ، وهيام أم حكيم زوج عبيد الله بن العباس في المواقف والمواسم تنشد طفليها الذبيحين ، وبكاء الشريف على المناذرة في خرائب الحيرة . وبكاء أبي عبادة على الاكاسرة في خرائب المدائن ، وبكاء الرضى على بني هاشم ، وبكاء العبلى على بني أمية ، وبكاء الرقاشي على بني برمك ، وذل أبي فراس في أسره ، والمعتمد بن عباد في سجنه ، وبكاء الوزير ابن زيدون على نفسه مرة ، وعلى ولادة أخرى ، وبكاء ابن مناذر على عبد المجيد ، والبحتري

على المتوكل ، وابن اللبانة على ابن عباد ، والتيمي على يزيد بن مزيد ، ومروان بن حفصة على معن بن زائدة، وجنون المجنون بليلاه ، وجلوسه في جنبات الحي منفرداً عارياً مذهوب اللب مشترك العقل يهذي ويخطط في الأرض ويلعب بالتراب ، ثم هيامه بعد ذلك مع الوحش في البرية لا يأكل الا ما ينبت فيها من بقل ، ولا يشرب الا مع الظباء اذا وردت مناهلها، وراحته الى الطريق يصعد مع مصعديه، وينحدر مع منحدريه، حتى هلك في أرض مقشعرة مغبرة بين الصخور والاحجار ، وشقاء قيس بلبناه بعد ان طلقها براً بوالده ، ونزولا على حكمه ، وذهاب الحب به ذلك كل مذهب ، حتى هلك بين الوفاء للفضيلة والوفاء للحب ، وموقف جميل بن معمر بين يدي أبيه ، وهو يعتب عليه أشد العتب وأمره في استهتاره بحب بثينة ومخاطرته بنفسه في الإلمام بحبها فيقول : يا أبت ! هل رأيت قبلي أحداً قدر ان يدفع عن قلبه هواه او ملك ان يسلي نفسه او استطاع ان يتقي ما قضى به عليه ، والله لو قدرت ان أمحو ذكرها من قلبي او أزيل شخصها من عيني لفعلت ، ولكن لا سبيل الى ذلك ، وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لي ، وأنا أمتنع عن طروق هذا الحي والإلمام به ولو مت كمداً ، وهذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه ، وبكاء النبي صلى الله عليه وسلم عندما سمع قيس بن عاصم يحدث عن نفسه انه كان يئد بناته في الجاهلية ، وان واحدة منهن ولدتها أمها وهو في سفر ، فدفعتها الى أخوالها ضناً بها على الموت وإشفاقاً عليها ، فلما عاد وسألها عن الحمل قالت له انها ولدت مولوداً ميتاً . ثم مضت على ذلك

سنون عدة حتى كبرت البنت ويفعت فزارت أمها ذات يوم فرآها عندها فاعجب بجمالها وعقلها وذكائها وسألها عنها فحدثته حديثها على وجهه ، ولم تكتمه شيئاً طمعاً في ان يضمها اليه ويمنحها رحمته وعطفه فامسك عنها أياماً ، ثم تغفل أمها عنها ذات يوم وخرج بها الى الصحراء حتى أبعد فاحتفر لها حفرة وجعلها فيها فاخذت تقول : يا أبت ما تريد ان تصنع بي ، وما هذا الذي تفعل ؟ وهو يهيل عليها التراب ولا يلتفت اليها ، وهي تئن وتقول : أتاركي انت يا ابت وحدي في هذا المكان ومنصرف عني ؟ حتى واراها وانقطع أنينها ، وبكاء الأعرابية التي مات منها ولدها في دار غربة فدفنته ، ثم وقفت على قبره تودعه . وتقول : والله يا بني لقد غذوتك رضيعاً ؛ وفقدتك سريعاً ، وكان لم يكن بين الحالين مدة ألتذ بعيشك فيها ، فاصبحت بعد الغضارة والنضارة ورونق الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى جسداً هامداً ورفاتاً سحيقاً وصعيداً جرزاً ، اللهم انك قد وهبته لي قرة عين فلم تمتعني به كثيراً بل سلبتنيه وشيكاً ثم أمرتني بالصبر ، ووعدتني عليه الأجر ، فصدقت وعدك ، ورضيت قضاءك ، فارحهم اللهم غربته ، وآنس وحشته ، واستر عورته يوم تنكشف الهنات والسوءات ؛ واثكل الوالدات ! ما أمض حرارة قلوبهن ، وأقلق مضاجعهن ؛ وأطول ليلهن ، وأقل انسهن ، وأشد وحشتهن ، وابعدهن من السرور ، واقربهن من الاحزان ، وشقاء ذينك البائسين المنكوبين عروة بن حزام وعفراء بنت عقال ومناصبة الدهر لهما وانقطاع سبيله بهما حتى اصبحت زوجاً لغيره

وأصبح بعدها هائماً مختبلا يرمي بنفسه المرامي ويقذف بها في فجاج الارض ومخارمها ، حتى بلغ منزلها ذات يوم فتنكر حتى زارها ، وهو يظن ان زوجها لا يعلم من أمره الا انه أحد الأضياف الغرباء ، فلما علم انه يعرف حقيقته ، وانه على ذلك لا يتهمه ولا يتنكر له ، عزم على الانصراف حياء منه وقال لها : يا عفراء ، انت حظي من الدنيا ، وقد ذهبت فذهبت دنياي بذهابك فما قيمة العيش من بعدك ، وقد أجمل هذا الرجل عشرتي واحتمل لي ما لا يحتمله أحد لأحد حتى استحييت منه ، وإني راحل من هذا المكان ، واني عالم أني راحل الى منيتي ، وما زال يبكي وتبكي حتى انصرف ، فلما رحل نكس بعد صلاحه وتماسكه وأصابه غشى وخفقان ، فكان كلما أغمي عليه ألقي على وجهه خماراً لعفراء كانت زوّدته إياه فيفيق ، حتى بلغ حيه وأمسك عاماً كاملاً لا يسمع منه سامع كلمة ولا أنة حتى بلغ منه اليأس فسقط مريضاً ، فمر بعض الناس فرآه مطرحاً بجانب خبائه ، فساله عما به ، فوضع يده على صدره ، وقال :

كأن قطاة علقت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان

ثم شهق شهقة كانت نفسه فيها،فلما بلغ عفراء خبره قامت الى زوجها وقالت : لقد كان من خبر ابن عمي ما كان ، وقد مات في وبسببي ولا بد ان أندبه وأقيم مأتماً عليه ، فقال : افعلي ، فما زالت تندبه ثلاثا حتى ماتت في اليوم الرابع . وشقاء سعد الوراق بحب عيسى النصراني حينما علم ان أهله قد بنوا له ديراً بنواحي الرقة ليترهب فيه ويحتجب عن

الناس فضاقت عليه الدنيا بما رحبت وأحرق بيته وفارق أهله واخوانه ولزم صحراء الدير عله يجد السبيل الى الوصول اليه ، فامتنع عليه ذلك بعد ما ذل للرهبان وتخضع وتأتى لهم بكل سبيل فلم يجده ذلك شيئاً ، فصار الى الجنون وحرق ثيابه وأصبح عريان هائماً لا شان له الا ان يقف بكل طائر يراه على شجرة فيناشده الله ان يبلّغ رسائله الى عيسى ، حتى رآه بعض الناس في بعض الايام ميتاً الى جانب الدير . وأمثال ذلك من مواقف البؤس ومصارع الشقاء ؛ كانما كنت أرى ان الدموع مظهر الرحمة في نفوس الباكين ؛ فلما أحببت الرحمة أحببت الدموع لحبها ؛ او كانما كنت أرى ان الحياة مواطن البؤس والشقاء ومستقر الآلام والاحزان ، وان الباكين هم أصدق الناس حديثاً عنها ، وتصوراً لها ، فلما أحببت الصدق أحببت البكاء لأجله ؛ او كانما كنت أرى ان بين حياتي وحياة اولئك البائسين المنكوبين شبهاً قريباً وسبباً متصلا ؛ فانست بهم وطربت بنواحهم طرب المحب بنوح الحمائم وبكاء الغمائم ، او كانما كنت في حاجة الى بعض قطرات من الدمع أتفرج بها مما أنا فيه ، فلما بكى الباكون وبكيت لبكائهم وجدت في مدامعهم شفاء نفسي وسكون لوعتي ؛ او كانما كنت أرى ان جمال العالم كله في الشعر وان الشعر هو تفجر من صدع الافئدة الكليمة فجرى من عيون الباكين مع مدامعهم ، وصعد من صدورهم مع زفراتهم .

تلك أيامي التي سعدت بها برهة من الدهر ومرّ لي فيها أحسن ما مرّ لأحد والتي لا أزال أذكرها بعد مرور تلك الاعوام الطوال فاكاد أشرق

بدمعي لذكراها ، ثم انثنيت فوجدت يدي صفراً منها وإذ أنا بين يدي هذا العالم المظلم المقشعر عالم الحقيقة والألم ، فنظرت اليه نظر الغريب الحائر الى بلد لا عهد له به ولا سكن له فيه فرأيت مخازيه وشروره وظلمة أجوائه ، واغبرار سمائه ، وقتال الناس بعضهم بعضاً على الذرة والحبة والنسمة والهبوة [1] ، واتساع مسافة الخلف بين دخائل القلوب وملامح الوجوه ، وسلطان القوة على الحق وغلبة الجهل على العلم . واقفار القلوب من الرحمة ، وجمود العيون عن البكاء ، وعجز الفقراء عن فتات موائد الاغنياء ، وتمضغ الاغنياء بلحوم الفقراء ، ورأيت الترائي بالرذيلة حتى ادعاها لنفسه ونحلها إياها من لا يتخلق بها طلباً لرضا الناس عنه برضاه عنها ، ورأيت البراءة من الفضيلة حتى فرّ بها صاحبها من وجوه الساخرين به والناقمين عليه فرار العاري بسوأته والموسوم بخزيته. ورأيت الرجل والمرأة وقد عرا [2] كل منهما ثوبه عن جسمه وألقاه بين يديه ، ثم تقايضا فلبست قباءه ولبس غلالتها فأصبح امرأة لها من النساء التكسر والتبرد وأصبحت رجلا له من الرجال التوقح والتشطر [3] ورأيت الدين وهو دوحة السلام الخضراء التي يستظل بها الضاحون [4] من لفحات الحياة وزفراتها قد استحال في أيدي الناس الى سهام مسمومة يحاول كل منهم ان يصيب بها كبد أخيه فلا يخطئها ، ورأيت ضلال الأسماء عن مسمياتها وحيرة مسمياتها بينها ، واضطراب الحدود

(١) الهبوة : الغبرة .
(٢) سرا الثوب عن جسمه : ألقاه عنه .
(٣) تشطر : صار شاطراً ؛ والشاطر هو من أعيى أهله خبثاً .
(٤) الضاحي : المتكشف للشمس .

والتعاريف عن أماكنها ومواقفها حتى دخل فيها ما لم يكن داخلا ، وخرج منها ما لم يكن خارجاً ، فسمى الشح اقتصاداً ، والكرم اسرافاً ، والحلم جبناً ، والسماجة جرأة ، والسفاهة براعة ، والفجور فتوة ، والتبذل حرية ، واشتبهت طرق الفضيلة ومسالكها على من يريد ركوبها ، لأنه يجد على رأس كل واحدة منها زعيماً من زعماء الخديعة والكذب يصرفه عنها الى غيرها، وكنت أرى ان الادب حال قائمة بالنفس تمنع صاحبها ان يقدم على شر او يحدث نفسه به او يكون عوناً لفاعليه عليه ، فإن ساقته اليه شهوة من شهوات النفس او نزوة من نزواتها وجد في نفسه عند غشيانه ومخالطته من المضض والارتماض ما ينغص عليه عيشه ، ويقلق مضجعه ، ويطيل سهده وألمه ، فإذا هو صورة من صور الجوارح وعرض من أعراض الجسم لا دخل له في جوهر النفس ، ولا علاقة بينه وبين الحس والوجدان ، فأكثر الناس عند الناس أدباً ، وأقومهم خلقاً ، وأطهرهم نفساً : من لا يفي على شرط ان يعد ، ومن يكذب على ان يكون كذبه سائغاً مهذباً ، ومن يملأ صدره موجدة وحقداً على ان يكون بساماً ضحوك السن ، ومن يسرق على ان يستطيع العبث بمواد القانون وخداع القضاة عنها ، ومن يبغض الناس جميعاً بقلبه على أن يحبهم جميعاً بلسانه ، ومن يحفظ تلك المصطلحات اللفظية وتلك الصور الجافة من الحركات الجسمية ، التي تواضع عليها المتكلفون في الزيارة والاستزارة والهناء والعزاء والمؤاكلة والمنادمة ، وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالباً الى صغر النفس واسفافها ، اكثر مما يرجع الى علوّها

وكالها ، فداخلني من ذلك خطر عظيم لم استطع ان أملك نفسي معه ، كأنما خيل اليّ – لقرب عهدي بما أرى – انني أرى شيئاً عجيباً ، او منظراً غريباً ، او كأنما كنت احسب ان عالم الخيال الذي كنت فيه إنما هو صورة صحيحة لعالم الحقيقة الذي انتقلت اليه ، فازعجني ما رأيت من هذا الاختلاف العظيم بينهما ، فارسلت الكلمة اثر الكلمة كما يتنفس المتنفس او يئن الحزين ، فقرأ ذلك بعض الناس ، فسموا ما رأوه كلاماً ، ثم ما زالوا يستحسنون ما أقول ويغرونني بأمثاله ، وما زلت اطمع فيهم وأرجو ان اصيب ما في نفوسهم ، حتى سموني كاتباً .

وكان لذلك الأدب الذي توليت به نفسي فيما مضى أثر باق عندي حتى اليوم فاني لا احسن ان اكتب كلمة يفضي بها غيري او أعبر عن معنى لا يقوم بنفسي او ابكي على من لا يحزنني فراقه . او اندب من لا يفجعني موته او استنكر ما استحسن . او استحسن ما استنكر ، كما لا استطيع ان أمر بمشهد من تلك المشاهد التي تهيج في نفسي حزنا شديداً ، او طربا كثيراً ، فاملك نفسي عن محاولة الإفضاء بما تركه عندي من خير او شر ، وما اعلم اني كتبت كلمة في شأن من الشئون الا وكان بعض تلك المشاهد منشاها في قلبي . فقد كنت رجلا لا احب الكذب ، ولا آخذ نفسي به ما وجدت منه بداً ، فأبغضت الكاذبين بغض الارض للدم . فكان من همي ان اقاتلهم على الصدق قتالا مستعراً ، حتى أصل بهم الى احدى الحسنيين: إما ان يكونوا صادقين وإما ان يعلم الناس انهم كاذبون، وكنت إنسانا بائسا لم يترك الدهر سهما من سهامه المريشة لم يرمني به ،

ولا جرعة من كاس مصائبـه ورزاياه لم يجرعني إياهـا ، فقد ذقت الذل أحيانا ، والجوع أياما ، والفقر اعواما ،ولقيت من بأساء الحياة وضرائها ما لم يلق بشر ، فشعرت بمرارة الحياة في أفواه المساكين . ورأيت مواقع سهام الدهر في أكباد البائسين والمنكوبين ، فكان من همي ان أبكي كل بائس ، وانـدب كل منكوب ، واطلب رحمـة القوي الضعيف ، والغنى للفقير ، والعزيز للذليل .

وقد قدّر لي فيما مرّ بي من ايام حياتي ان رأيت بعيني من وقفت بين يديه امرأة ذليلة تبكي وتضرع اليه ان يرضخ لها بقليل من المال تستعين به على ستر ما كشف ابنه من سوأة ابنتها ، فابى ذلك عليها وقال لهـا ـ وهو يحسب انه يعقل ما يقول ـ : أيتها المرأة لا حق لابنتك عندي ولا عند ولدي . فلم يكن حظه منها فيما كان من أمرهما باكبر من حظها منه ، ورأيت من تزوج من فتاة كان يمسك في نفسه لأهلها حقداً قديما ، فـا دنا منها ليلة البناء بها حتى صدف عنها صارخا : أيها الناس ان الفتاة مريبة . وكان كاذبا فـيما يقول ، ولكن صدقـه الناس ، فانتقم لنفسه بذلك شر انتقام وافظعه ، ورأيت من دخلت اليه امرأة من اولئك النساء المريبات تساله بعض المعونة على أمرها فامر بطردها ذهابا بنفسه ان تسوء سمعته بدخولها بيته ، وكان هو الذي افسدها على نفسها فنزل بها فسادها الى هذه المنزلة من السقوط ثم الفقر ، فلما جد الجد حاسبها عـلى لقمة تتذوقها في بيته . ولم يحاسب نفسه على عرض كان يأكله في بيته أكلا . فكان بي منذ ذلك العهد ان انظر الى المرأة بعين غير العين التي ينظر بها الناس اليها ،

وان ألتمس لها من العذر ـ وان زلت بها قدم ـ ما لا يلتمسه لها احد ، وان انتصف لها من الرجل ما وجدت سبيلا الى ذلك حتى يديل لها الله منه ، وكنت من شئون عيشي في حالة لا استطيع معها ان اعتزل الناس الاعتزال كله ، ولا ان اختار لعشرتي من أشاء من خيارهم وذوي المروءة فيهم ، فلبستهم على علاتهم فما حفظ لي صديق عهداً ولا صان لي صاحب سراً ، ولا استدنت مرة فنفس عني دائن ، ولا دنت فوفى لي مدين ، ولا رد لي مستعير عارية ، ولا شكر لي شاكر صنيعة ، ولا فرج لي كربتي مفرج الا اذا استقطر ماء وجهي الى القطرة الاخيرة منه ، ليأخذ اكثر مما أعطى ، ويسلب فوق ما وهب ، ووجدت في طريق حياتي من خالطني مخالطة الزائر للمزور حتى امكنته الفرصة فسرق مالي بعد ما تحرم بطعامي وشرابي . ومن كان يبسط اليّ يد الآمل الراجي فأكره ان أرده خائباً ، فلما عجزت عن ذلك مرة اضمر لي في قلبه من الشر ما لا يضمر لمثله الرجل الا لمن يغلبه على تراث أبيه وأمه ، او يخضب لحيته من دم مفرقه ومن نصب [1] لي وغرى بمحاداتي ومماظتي [2] ، لأنه كان يحمل في رأسه فتكة لم يجد في طريقه من يحملها عنه ويستخذي له فيها سواي ، ومن اخذ نفسه بالنيل مني والغض من شأني لأنه كان يشكو الخمول والضعة وكان لا بد له ان يكون نابهاً مذكوراً ، فاتفق له ان رأى عاتقي بين يديه فظن انه اعلى العواتق وابعدها مذهباً في جو السماء ، فعلاه ليشرف منه على الناس فيعرفوا مكانه ، فوالله ما تحلحلت ولا نبوت به

(١) نصب فلان لفلان : عاداه . (٢) المماظة : المخاصمة والمشارة .

بقياً عليه وضناً به ان يسقط سقطة لا يثل منها ، ومن كان لا يكبر شاني الا اذا اتقاني ، فاذا اضاء ما بيني وبينه كنت في عينه اصغر منه في عين نفسه ، ومن كان يقبل ويدبر بإقبال الدهر عليّ وإدباره عني ، لا يستحي ان يكرر ذلك حتى استحيي له منه . فعركت بجنبي [1] كل ما كرهت من ذلك ، ولكنني لم أرض لنفسي ان انزل في الغرارة والسذاجة دون المنزلة التي ينزل اليها الغر الكريم ، فلم أثار لنفسي ، ولكن اصبح رأيي في الناس غير رأيهم في انفسهم ، ورأى بعضهم في بعض ، وخفت ان يصيب كثيراً من الضعفاء والمحدودين [2] امثالي مثل ما اصابني ، فكان من همي ان أدل على شرور الاشرار الكامنة في نفوسهم وان اكشف الستر عن دخائل قلوبهم حتى يتراءوا ويتكاشفوا ، فيتواقعوا ويتحاجزوا ، فلا يهنأ خادع بخدعته ، ولا يبكي مخدوع على نكبته ، ولا يتخذ بعضهم بعضا حمراً يركبونها الى اغراضهم ومطامعهم ،وكان منشىء في قوم بداة سذج لا يبتغون بدينهم دينا ، ولا بوطنهم وطنا ، ثم ترامى بي الأمر بعد ذلك وتصرفت بي في الحياة شئون جمة ، فخضعت لكثير من احكام الدهر واقضيته ، الا ان اكون ملحداً في ديني او زاريا على وطني ، فاستطعت ــ وقد غمر الناس ما غمرهم من هذه المدنية الغربية ــ ان اجلس ناحية منها . وان انظر اليها من مرقب عال ، وكنت اعلم ان من اعجز العجز ان ينظر الرجل الى الأمر نظرة طائرة حمقاء ، فإما اخذه كله او تركه كله ، فرأيت حسناتها وسيئاتها ، وفضائلها ورذائلها ،

(١) عرك بجنبه ذنب صاحبه : احتمله . (٢) المحدود : المحروم ؛ ويراد به سيء الحظ.

وعرفت ما يجب ان يأخذ منها الآخذ وما يترك التارك ، فكان من همي ان احمل الناس من امرها على ما احمل عليه نفسي ، وان انقم من هؤلاء العجزة الضعفاء وتهالكهم لها ، واستهتارهم بها ، وسقوطهم بين يدي رذائلها ومخازيها ، والحادها وزندقتها ، وشحها وقسوتها ، وشرهها وحرصها ، وتبذلها وتهتكها ، حتى اصبح الرجل الذي لا بأس بعلمه وفهمه اذا حزبه الامر [1] في مناظرة بينه وبين من يأخذ برذيلة من من الرذائل لا يجد بين يديه ما ينضج به عن نفسه الا ان يعتمد عليها في الاحتجاج على فعل ما فعل ، او ترك ما ترك كانما هي القانون الإلهي الذي تثوب اليه العقول عند اختلاف الانظار واضطراب الافهام ، او القانون المنطقي الذي توزن به التصديقات والتصورات لمعرفة صوابها وخطئها وصحيحها وفاسدها ؛ وحتى اصبح السيد في منزله يستحي الحياء كله من خادم غرفته الاوربية ان تطلع منه على جهل ببعض عاداتها وعادات قومها حتى في لبس الرداء وخلع الحذاء اكثر مما يستحي من الله ومن الناس ان يهجموا منه على ارذل الرذائل واكبر الكبائر ؛ وحتى اصبح طريق المشرق وتاريخ علمائه وادبائه وفلاسفته وشعرائه صورة من اقبح الصور واسمجها في نظر كثير من الشرقيين : يفخرون بجهله ان جهلوه ، ويراؤون بعلمه ان علموه ، وحتى قدر الغلام الرومي ـ خادم الحان ـ منفرداً على ما لا تقدر عليه الامة جميعها مجتمعة ، فحملها على النزول اليه لتحدثه بلغته ، قبل ان تحمله على الصعود اليها ليحدثها

(١) حزبه الامر : اشتد عليه .

بلغتها ، وهو الى ان يترضاها ويستدنيها احوج منها الى ان تترضاه وتزدلف اليه .

فذلك ما تراه في رسائل النظرات منتثراً ههنا وههنا ، وقد شعر به قلبي ففاض به قلبي من حيث لا اكذب الناس عن نفسي ، ولا اكذب نفسي عنها .

وعندي ان الكاتب المسخر الذي لا شأن له الا ان يكتب ما يفضي به الناس اليه صانع غير كاتب ، ومترجم غير قائل ، لا فرق بينه وبين صائغ الذهب وثاقب اللؤلؤ : كلاهما ينظم ما لا يملك ويتصرف فيما لا شأن له فيه ، على ان خير ما ينتفع به الاديب من أدبه ان يترك يوم وداعه هذه الدنيا صفحة يقرأ فيها الناظرون في تاريخه من بعده صورة نفسه ومضطرب آماله ومسرح احلامه ؛ فان كان من شأنه في حياته ان يكون مرآة تتقلب فيها مختلفات الصور ، او وفيعة [1] تتمسح بها اعواد الاقلام كان خسرانه عظيما لا يقوم به كل ما يربح الرابحون من مال او يؤثلون من جاه ، والتاريخ اضن من ان يحفظ بين دفتيه من مجد الادباء الا مجد اولئك الذين يودعون نفوسهم صفحات كتبهم ثم يموتون وقد تركوها نقية بيضاء من بعدهم ، وحياة الكاتب بحياة كتابته في نفوس قرائها ، ولا تحيا كتابة كاتب سيعلم الناس من أمره بعد قليل انه يكذبهم عن نفسه وعن نفوسهم وانه رواغ متخلج [2] يأمرهم اليوم بما ينهاهم عنه غدا ، ويرى في ساعة ما لا يرى في أخرى ، وانه يستبكي ولا يبكي ،

(١) الوفيعة : حرفة يمسح بها القلم . (٢) المتخلج : المضطرب في مشيته .

ويسترحم ولا يرحم ، ويحزن النفوس وهو ساكن ، ويثير الثائر وهو سالم ، فيستريبون به ، ويحارون في مصادره وموارده ، ثم يحملون أمره شر حاليه ثم ينقطع ما بينهم وبينه ، والبيان ليس سلعة من السلع التي يتنقل بها تجارها من سوق الى سوق ومن حانوت الى آخر ، ولكنه حركة طبيعية من حركات النفس تصدر عنها آثارها عفواً بلا تكلف ولا تعمل ، صدور النور عن الشمس ، والصدى عن الصوت ، والاريج عن الزهر ، وشعاع لامع يشرق في نفس الأديب اشراق المصباح في زجاجته ، وينبوع ثرار يتفجر في صدره ثم يفيض على اسلات قلمه ، وهو أمر وراء العلم واللغة والمحفوظات والمقروءات والقواعد والحدود ، ولو ان أمراً من ذلك كائن لكان ابرع الكتاب وأشعر الشعراء أغزرهم مادة في العلم ، او اعلمهم بقواعد اللغة ، او أجمعهم لمتونها ، او احفظهم لفصيح القول ورائعه ؛ أما العلم فاكثر المؤلفين الذين تركوا بين أيدينا هذه الاسفار التي نقرؤها في الشريعة والحكمة والمنطق وغيرها كانوا علماء ما يتدافع في ذلك اثنان ؛ وها قد مرت علينا وعلى ما تركوه بين أيدينا القرون والحقب واكثرنا عاجز عن فهم اكثر ما كانوا يكتبون ؛ وأما المحفوظات فما نعلم أحد أحفظ لكتاب الله من جماعة القراء ، ولا أحفظ للحديث من الفقهاء ، ولا أقل منهم إلماماً بالادب ولا أبعد عنه مكاناً ؛ وأما اللغة فما عرفنا بين المتقدمين والمتاخرين من رواتها وحفاظها والمتوفرين على تدوينها وتحقيقها والمنقطعين لدرس قواعدها وفنونها من عرفت له البراعة والتفوق في تحبير الرسائل او قرض الشعر او القوة

القلمية فى التصنيف في غير ما أخذوا انفسهم به ؛ وكان الخليل بن احمد اذا سئل عن نظم الشعر قال : يابابي جيده وآبي رديئه ؛ وكان الاصمعي يحفظ ثلث اللغة ، وأبو يزيد الانصاري يحفظ نصفها وأبو مالك الاعرابي يحفظها كلها ، وكذلك كان شأن النضر بن شميل وأبي عبيدة وابن دريد والازهري والصاغاني وابن فارس وابن الاثير صاحب النهاية ،والجوهري والفيروزا بادي وامثالهم من علماء اللغة والنحو ، وما سمعنا لواحد منهم في احدى الصناعتين شيئاً مذكوراً ، وقال ابو العباس المبرد في بعض احاديثه لا احتاج الى وصف نفسي : لعلم الناس بي انه ليس احد من الخافقين تختلج في نفسه مشكلة الا لقيني بها وأعدني لها ، فانا عالم ومتعلم وحافظ ودارس ، لا يخفي عليّ مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور والخطب والرسائل وربما احتجت الى اعتذار من فلتة او التماس حاجة ، فاجعل المعنى الذي اقصده نصب عيني ، ثم لا اجد سبيلا الى التعبير عنه بيد ولا لسان ، ولقد بلغني ان عبيد الله بن سليمان ذكرني بجميل فحاولت ان اكتب اليه رقعة أشكره فيها واعرض بعض اموري فاتعبت نفسي يوماً في ذلك فلم اقدر على ما ارتضيه منها ، وكنت احاول الافصاح عما في نفسي فينصرف لساني الى غيره اهـ . بل لو شئت لقلت انه ما افسد علي المتنبي وأبي تمام كثيراً من شعرهما ، ولا المعري كثيراً من منظمه ومنثوره ، ولا على الحريري مقاماته ، ولا على ابن دريد مقصورته ، الا غلبة اللغة عليهم واستهتارهم بها وشغفهم بتدوينها في كل ما يكتبون فقد كانوا هم وامثالهم من حبائس اللغة وانضائها في كثير من مواقفهم يؤلفون

ويدونون ، من حيث يظنون انهم ينظمون او يكتبون ، ولا تزال نفسي تشتمل على لوعة من الحزن لا تفارقها حتى الموت كلما ذكرت ان الادب العربي كان يستطيع ان يكون خيراً مما كان لو ان الله تعالى كتب للزوميات المعري النجاة من قبضة اللغة وأسر الالتزام وانك لا تكاد ترى اليوم من شعراء هذا العصر وكتابه ـ الذين ياخذون بزمام المجتمع العربي ويقيمون عالمه ويقعدونه بقوتهم القلمية في شئونه السياسية والاجتماعية والأدبية كافة ـ من يعد من حفاظ اللغة العربية .وثقاتها ، او من يسلم له مقال من مأخوذ نحوي او مغمز لغوي ، وهم على ذلك أدخل في باب البيان وألصق به وأمس رحماً من اولئك الذين يستظهرون متون اللغة ويحفظون دقائقها ويحيطون بمترادفها ومتواردها ويتباصرون بشاذها وغريبها ويحملون في صدورهم ما دق وما جل من مسائل نحوها وتصريفها ، فاذا عرض لهم غرض من الاغراض في أي شأن من شئون حياتهم وأرادوا انفسهم على الافضاء به ـ ارتج عليهم فأغلقو او تقعروا وتشدقوا فكانهم لم ينطقوا ، والفرق بين الأدباء واللغويين ان الاولين كاتبون ، والآخرون مصححون ؛ فمثلهما كمثل النساج وعامله : هذا ينسج الثوب ، وهذا يلتقط زوائده ويمسح زئبره [1] ، او كمثل الشاعر والعروضي : هذا ينظم الشعر وهذا يعرضه على تفاعيله وموازينه ، وليس البيان ذهاب كلمة ومجيء أخرى ، ولا دخول حرف وخروج آخر ، وإنما هو النظم والنسق والانسجام والاطراد والرونق واستقامة

(١) الزئبر : ما يظهر من درز الثوب .

الغرض وتطبيق المفصل ، والاخذ بمجامع الالباب ، امتلاك ازمة الهواء ؛ فاذا صح ذلك لامرىء فهو الكاتب القدير او الشاعر الجليل ؛ فان زلت به يده اصيل ، او كان ممن يفوته العلم ببعض قواعد اللغة او بعض وجوه الاستعمال فيها ، كان ذلك عيباً لاحقاً بعلمه او بحافظته ، لا ببيانه وفصاحته ، ومتى صدر القائل في قوله عن سجية وطبع ، اصبح شانه شبيهاً بشأن العرب الاولين ، وكان من شانهم ان يسبقهم في كلامهم الخطأ اللفظي في بعض الأحيان ، وكان السبب في ذلك كما يقول ابو علي الفارسي : انهم كانت تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ؛ فربما استهواهم الشيء ، فزاغوا به عن القصد من حيث لا يشعرون ، وكما ان الجسم لا يغير من صورته ، ولا يبدل من سحنته ، ان تطير منه ذرة وتحل أخرى محلها لتمثلها ، كذلك لا يغير من صورة الكلام ولا يذهب بنسقه خروج اصيل ، او دخول دخيل ، وقد قيل لأحد الكتاب الانكليز : نراك كثير الاعجاب بالكاتب « كبلنغ » وهو رجل لحانة لا يحفل بقواعد اللغة ، فاجاب : ان سطراً واحداً مما يكتبه « كبلنغ » أثمن عندي من قوانين اللغة جميعها ، وليس من الرأي ان احرم نفسي التمتع بادبه واكراماً لسواد عيون الغراماطيق [1] الانكليزي ، فضل الأدباء على اللغة في سيرورتها وذيوعها وتداولها وخلودها افضل من فضل اللغويين عليها في ذلك ، لأنهم هم الذين يمهدون سبلها ويعبدون [2] طرقها ويستدنون نافرها ، ويجمعون شاردها ، وينظمون لآلئها نظم الثاقب لآلئه في السلك

(١) الغراماطيق : النحو .
(٢) يعبدون : يذللون ويمهدون .

فيأخذها الناس عنهم من اخصر الطرق واقربها ، واشهاها الى النفس ، واعلقها بالقلب ؛ وقليل من الناس من يأخذ مادته اللغوية من معاجم اللغة او يكتسب ملكة الاعراب من كتب النحو والتصريف ؛ وما كانت اللغة عدوة للأدب ولا كان عدواً لها ، بل هي أساسه وقوامه الذي يقوم به ، ولكن المشتغلين بها والمتوفرين على دراستها ، والمنقطعين لاستظهارها ، والنظر في دقائقها ، والتعمق في أطوائها لا يزال يتغلب عليهم الولع بها والفناء فيها ، حتى تصبح في نظرهم مقصداً من المقاصد ، لا وسيلة من الوسائل ، وللبيان وسائل كثيرة غير وسيلة اللغة فمن لا يأخذ نفسه بجميع وسائله لا يصل اليه ، والتربية العلمية كالتربية الجسمية ؛ فكما ان الطفل لا ينمو جسمه ولا ينشط،ولا تتبسط اعضاؤه، ولا تنتشر القوة في اعصابه ، الا اذا نشأ في لهوه ولعبه وقذفه ووثبه ؛ كذلك الكاتب لا تنمو ملكة الفصاحة في لسانه ، ولا تأخذ مكانها من نفسه الا اذا ملك الحرية في التصرف والافتنان والذهاب في مذاهب القول ومناحيه كما يشاء وحيث يشاء ، دون ان يسيطر عليه في ذلك مسيطر الا طبعه وسجيته،واللغوي لا يزال يحوط نفسه بالحذر والخوف والوساوس والبلابل، فان مشى خيل اليه انه يمشي على رملة ميثاء ، وان تحرك خيل اليه ان تحت قدميه حفرة جوفاء حتى يقعد به خوفه ووسواسه عن الغاية التي يريد الوصول اليها . على ان الكاتب لا يبلغ مرتبة الكتابة الا اذا نظر الى الألفاظ بالعين التي يجب ان ينظر بها اليها فلم يتجاوز بها منزلتها الطبيعية التي تنزلها من المعاني ، وهي ان تكون خدماً لها وخولا،

واوعية وظروفاً ، فاذا كتب تركها وشأنها واغفل أمرها حتى تأتي بها المعاني وتقتادها طائعة مرغمة ، والمعاني هي جوهر الكلام ولبه ، ومزاجه وقوامه ، فما شغل الكاتب من همته بغيرها أزرى بها حتى تفلت من يده فيفلت من يده كل شيء .

وبعد ؛ فالعلم والمحفوظات والمقروءات والمادة اللغوية ، والقواعد النحوية إنما هي أعوان الكاتب على الكتابة ووسائله اليها ؛ فالجهل لا يكتب شيئاً لأنه لا يعرف شيئاً ؛ ومن لا يضطلع بأساليب العرب ومناحيها في منظومها ومنثورها سرت العجمة الى لسانه ، او غلبته العامية على أمره ؛ ومن قل محفوظه من المادة اللغوية ، قصرت يده عن تناول ما يريد تناوله من المعاني ؛ ومن جهل قانون اللغة أغمض الاغراض وابهمها ، او شوّه الالفاظ وهجنها ، ولكنها ليست هي جوهر الفصاحة ولا حقيقة البيان فاكثر القائمين عليها والمضطلعين بها ، لا يكتبون ولا ينظمون ، فإن فعلوا كان غاية احسان المحسن منهم ان يكون كصانع التماثيل الذي يصب في قالبه تمثالاً سوياً متناسب الاعضاء مستوى الخلق ؛ إلا أنه لا روح فيه ولا جمال له ، لأنه ينقصهم بعد ذلك كله أمر هو سر البيان ولبه ، وهو الذوق النفسي والفطرة السليمة ، وأنى لهم ذلك ؛ وما دخلت الفلسفة أياً كان نوعها على عمل من أعمال الفطرة الا أفسدته ، وما خلط التكلف عملا من أعمال الذوق الا شوّه وجهه ، وذهب بحسنه وروائه .

ولقد قرأت ما شئت من منثور العرب ومنظومها ، في حاضرها وماضيها قراءة المتثبت المستبصر ، فرأيت ان الاحاديث ثلاثة : حديث

اللسان ، وحديث العقل ، وحديث القلب .

فاما حديث اللسان فهو في تلك العبارات المنمقة ، والجمل المزخرفة، او تلك الكلمات الجامدة الجافة التي لا يعني صاحبها منها سوى صورتها اللفظية فإن كان لغوياً تقعر وتشدق ، وتكلف وأغرب ، حتى ياتيك بشيء خير ما يصفه به الوصف أنه متن مشوش من متون اللغة لا فصول له ولا أبواب ،وإن كان بديعياً جنس ورصع وقابل ووسع وزاوج وافتن في الإتيان بالكلمة مهملة كلها او معجمة كلها او راوح بين الإهمال والإعجام ، فيخيل اليك وانت تراه ينطق بما ينطق به كانما هو يصنعه بيديه صنعاً ، او يصففه تصفيفاً ، ثم لا يبالي بعد ذلك باستقامة المعنى في ذاته ولا بمقدار ما له من الاثر في نفس السامع ، وهذا الحديث هو أسقط الأحاديث الثلاثة وأدناها واجدرها ان ينظمه الناظم في سلك الصناعات اليدوية التي لا دخل للعقل ولا للفهم في شيء منها ، وان ينظم صاحبها في سلك جماعة المحللين الذين لا شان لهم إلا تحليل المواد وتركيبها، وجمعها وتفريقها ، والمزاوجة بين مقاديرها ، والموازنة بين اثقالها ، من حيث لا يكون لقوة التصور ولا لذكاء القلب دخل في هذا أو ذاك .

وأما حديث العقل فهو تلك المعاني التي ينحتها الناحتون من أذهانهم نحتاً ، ويقتطعونها منها اقتطاعاً ، ويذهبون فيها مذهب المعاياة والتحدي والعمق والاغراب ، ويسمونها تارة تخييلا وأخرى غلواً وأخرى حسن تعليل ، الى كثير من أمثال هذه الأسماء والألقاب التي تتفرق ما تتفرق ، ثم يجمعها شيء واحد هو الكذب والإحالة ؛ وآية ما بينك وبينها : انك

اذا رأيتها شعرت بانك ترى أمامك شيئاً غريباً عن نفسك . وعن نفس صاحبه ، وعن نفوس الناس جميعاً ، وان صاحبه لا يريد منه الا ان يطرفك او يضحكك او يعجبك من ذكائه وفطنته واقتداره على تصوير ما لا يتصور وإيجاد ما لا يكون ، وهو أمر لا علاقة له بجوهر الشعر ، ولا حقيقة الكتابة ، وربما انعكس عليه حتى غرضه هذا فنفرك وأكدك وملأ قلبك غيظاً وقبحاً كان يقول :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فان الجوزاء لا تنتطق ، ولو كان هذا الذي نراه يستدير بها نطاقاً فهو شيء متصل بها قبل ان يخلق الممدوح ويخلق آباؤه الأولون الى آدم وحواء ، والكواكب ليست أشخاصاً أحياء يتخذ منها الناس خدماً وخولا لأنفسهم ولو كانت كذلك لاستحال عليها — وهي من سكان السماء — ان تهبط الى الارض لتخدم سكانها ، فقد كذب وأحال أربع مرات في بيت واحد ، ثم عجز بعد هذا كله ان يترك في نفس السامع صورة تمثل جلال ممدوحه ، وعظم شانه ، فهو في الحقيقة إنما يريد ببيته هذا ان يمتدح نفسه بالابداع وقوة التخيل ، لا ان يمتدح ممدوحه برفعة الشان وعلو المقام .

او يقول :

ما به قتل أعاديه ولكن يتقي اخلاف ما ترجو الذئاب

فان الذي يحمل في صدره قلباً رحيماً مشفقاً على الذئاب من الجوع ،

مستعظما ان يخلفها ما عوّدها إياه من طعام وشراب ، لا يمكن ان يكون هو نفسه ذئباً ضارياً يريق دماء الناس ويمزق احشاءهم ، ويقطع اوصالهم، ليملأ بها بطون الوحش ؛ ولا يوجد بين الاسباب التي تحمل الناس على القتال سبب يشبه هـذا السبب الذي ذكره ؛ عـلى ان المحسن لا يكون محسناً الا اذا وهب ما يهب من ماله ، ومن خزائن بيتـه ، فإما ان يقتـل الناس تقتيلا ويمثل بهم ، ثم ينعم بجثثهم على الجائعين والظماء من وحوش الارض وذئابها ؛ فذلك شيء هوٌ بالجنون اشبه منه بالإحسان .

او يقول :

لا يـذوق الإغفـاء الا رجـاء ان يرى طيف مستميح رواحا

فان النوم قوام الإنسان وعمـاد حياتـه ، ولازم من لوازمه اللاصقة به ، أراد ذلك أم لم يرد ، فان كان لا بد من دخوله في باب الاختيار فان من ابعد الاشياء عن التصور والفهم ان يكون ما يحمل الإنسان على طلب النوم رجاؤه ان يرى فيه الاحلام والرؤى ، فـان فعـل فعـلا يدخل في باب اغراضه وامانيه ان ينـام ليرى خيال جماعة المتسولين والمتاكلين ، وهم ملء الارض وهباء الجو ، وارصاد الاعتاب ، واعقاب الابواب ، لا تفتح الاعين الا عليهم ولا تمتلىء الأنظار الا بهم ، فهم لم يبلغوا في الضن بانفسهم والعزف بها مبلغ من لا يراه الرائي ولا يعثر به الا اذا ألقى في طريقه حبائل الاحلام ليصطاد بها .

او يقول :

لم يتخـذ ولداً الا مبـالغـة في صدق توحيد من لم يتخذ ولداً

فإن الاولاد لا يتخذون اتخاذاً ، وإنما ينعم الله بهم على من يشاء من خلقه إنعاماً ، واكثر ما تقذف به الأرحام من النسمات إنما هي ثمرات الحب يأتي بها عفواً ، لا نبتة من نبات الارض يبذر الزارع بذورها ليستنبتها ، والله تعالى غني بربوبيته ووضوح آثارها عن الاستدلال عليها بنطفة يقذفها قاذفها في بعض الأرحام ، فان كان لا بد في إثبات ربوبيته من دليل يدل على مخالفته للحوادث في الصفات والافعال ؛ فالأدلة على ذلك كثيرة لا يضبطها الحساب كثرة . وربما كان أهونها واضعفها انه لا يتخذ ولداً ، وانهم يتخذون . على ان المتخذين كثيرون قد ضاق بهم بطن الارض وظهرها ، فالمسالة مفروغ منها قبل ان يخلق هذا الممدوح ويخلق ولده ؛ فلا فضل له في الإتيان بشيء جديد.

او يقول :

وما ريح الرياض لها ولكن كساها دفنهم في الترب طيباً

فإن الأزهار التي تستمد حياتها ونماءها من جثث الموتى ورممهم لا يمكن ان تكون طيبة الريح ، على ان الأزهار مريحة قبل ان يدفن هؤلاء الموتى في قبورهم ، فلم يزد في كلمته هذه على ان أتى بخيال ضعيف مبتذل هو اشبه الاشياء بخيال العامة الذين يرون ان بعض الأزهار ما خلق الا اكراماً لبعض النبيين .

او يقول :

تتلف في اليوم بالهبات وفي الـ ساعة ما تجتنيه في سنتك

فقد اراد ان يصف ممدوحه بالكرم وصفاً فوق ما يصف الناس

وياتي في ذلك بما لم يأت بـه غيرهُ ؛ فانزله منزلة مجانين المسرفين الذين لا يحسنون الموازنة بـين دخلهم ونفقاتهم ، ولو تقدمت هذه التهمة بهذه الصورة الى قاض من قضاة المال لما كان له بد من الحجر عليه ، والقضاة يرضون في مثل هذه الأحكام بدون إنفاق دخل السنة جميعها في ساعة واحدة او يوم واحد .

او يقول :

ولما ضاق بطن الارض عن ان يضم علاك من بعد المات
اصاروا الجوقبركواستعاضوا عن الاكفان ثوب السافيات

فإن شيئاً من ذلك لم يكن ، فالقبر لا يضيق باحد ، والجو لا يكون قبراً ، والريح ليست كفناً ، والرجل لا يزال مصلوباً غير مقبور ، ولا يزال عارياً غير مدرج في كفن .

واما حديث القلب فهو ذلك المنثور او المنظوم الذي تسمعه فتشعر ان صاحبه قد جلس الى جانبك ليتحدث اليك كما يتحدث الجليس الى جليسه،او ليصور لك ما لا تعرف من مشاهد الكون،او سرائر القلوب ، او ليفضي اليك بغرض من اغراض نفسه ، او لينفس عنك كربة من كرب نفسك ، او ليوافي رغبتك في الإفصاح عن معنى من المعاني الدقيقة التي تعتلج في صدرك ، ثم يتكاءدك الإفصاح عنها من حيث لا يكون للصناعة اللفظية ، ولا للفلسفة الذهنية دخل في هذا او ذاك ، حتى ترى حجاب اللفظ قد رق بين يديك دون المعنى حتى يفني كما تفني الكاس الصافية دون ما تشمل عليه من الخمر ، فاذا الخمر قائمة بغير إناء ، او كما

تفني صفحة المرآة الصقيلة بين يدي الناظر فيها ، فلا يرى الا صورته ماثلة بين يديه ، ولا لوح هناك ولا زجاج ، وهو ارقى الاحاديث الثلاثة واشرفها ، وهل الذي يريده المريدون مهما اختلفت عباراتهم ، وتنوعت اساليبهم من كلمة البيان .

ولقد كان من اكبر ما اعانني على امري في كتابة تلك الكلمات اشياء اربعة انا ذاكرها ، لعل المتأدب يجد في شيء منها ما ينتفع به في ادبه .

(اولها) اني ما كنت احفل من بين تلك الاحاديث الثلاثة بحديث اللسان ولا حديث العقل ، اي انني ما كدت اتكلف لفظاً غير اللفظ الذي يقتاده المعنى ويتطلبه ، ولا افتش عن معنى غير المعنى الطبيعي القائم في نفسي ، بل كنت احدث الناس بقلمي كما احدثهم بلساني ، فاذا جلست الى منضدتي خيل إليّ ان بين يدي رجلاً من عامة النـاس مقبلاً عليّ بوجهه ، وأن من ألذ الاشياء وأشهاها الى نفسي ان لا أترك صغيراً ولا كبيراً مما يجول بخاطري حتى أفضي به اليه ، فلا أزال اتلمس الحيلة الى ذلك ولا أزال أتاتى اليه بجميع الوسائل وألح في ذلك إلحـاح المشفق الجد ، حتى اظن أني قد بلغت من ذلك ما أريد ، فلا أقيـد نفسي بوضع مقدمة الموضوع في اوله ولا سرد البراهين على الصورة المنطقية المعروفة ، ولا التزام استعمال الكلمات الفنية التزامـاً مطرداً إبقاء على نشاطه وإجماحه ، وإشفاقاً عليه ان يمل ويسأم ، فينصرف عن سماع الحديث أو يسمعه فلا ينتفع به .

(وثانيها) اني ما كنت أحمل نفسي على الكتـابة حملاً ، ولا أجلس

الى منضدتي مطرقاً مفكراً : ماذا اكتب اليوم ، وأي الموضوعات أعجب وأغرب وألذ وأشوق ، وأيها أعلق بالنفوس ، وألصق بالقلوب ؟ بل كنت ارى فافكر فاكتب فانشر ما اكتب فارضي الناس مرة وأسخطهم أخرى من حيث لا اتعمد سخطهم ولا أتطلب رضاهم .

(وثالثها) أني ما كنت اكتب حقيقة غير مشوبة بخيال ، ولا خيال غير مرتكز على حقيقة ، لأني كنت أعلم ان الحقيقة المجردة عن الخيال لا تاخذ من نفس السامع ماخذاً ، ولا تترك في قلبه أثراً ؛ وأحسب ان السبب في ذلك ان اكثر ما تشتمل عليه النفوس من العقائد والمذاهب والآراء والاخلاق ، والخواطر والتصورات ، إنما هو اثر من آثار الخيالات الذهبية التي تتراءى في سماء الفكر . ثم لا تزال بها الايام تكسوها طبقة بعد طبقة من غبار القدم حتى تصبح حقيقة من الحقائق الثابتة في الأذهان ، وكما ان الحديد لا يفل إلا الحديد ، واللون لا يذهب به إلا لون غيره . كذلك الخيال لا يذهب ولا يزعجه من مكانه الا الخيال ، وللخيال الأثر الاعظم في تكوين هذا المجتمع الانساني وتكييفه على الصورة التي يريدها ، فلولا خيال الشعر ما هاج الوجد في قلب العاشق ، ولولا خيال الشرف ما هلك الجندي في ساحة الحرب ، ولولا خيال الذكرى ما اخترعت المخترعات ، ولا ابتدعت المبتدعات ، ولولا خيال الرحمة ما عطف غني على فقير ، ولا حنا كبير على صغير ، كما كنت أعلم ان الخيال غير المرتكز على الحقيقة إنما هو هبوة طائرة من هبوات الجو لا تهبط أرضاً ولا تصعد الى سماء .

(ورابعها) أني كنت اكتب للناس لأعجبهم ، بل لانفعهم ، ولا

لاسمع منهم : انت احسنت، بل لأجد في نفوسهم أثراً مما كتبت ، وللناس كما قلت في بعض رسائلي ؛ خاصة وعامة ، أما خاصتهم فلا شان لي معهم، ولا علاقة لي بهم ولا دخل لكلمة من كلماتي في شأن من شؤونهم فلا أفرح برضاهم ولا اجزع لسخطهم ، لأني لم اكتب لهم ، ولم اتحدث معهم ، ولم أشهدهم أمري ، ولم أحضرهم عملي، بل أنا أتجنب جهد المستطاع ان استمع منهم شيئاً مما يتعلق بي من خير أو شر ؛ لأني راض عن فطرتي وسجيتي في اللغة التي اكتب بها ، فلا احب ان يكدرها عليّ مكدر ، وعن آرائي ومذاهبي التي أودعها رسائلي فلا احب ان يشككني فيها مشكك ، ولم يهبني الله من قوة الفراسة ما استطيع به ان أميز بين مخلصهم ومشوبهم . فأصغي الى الاول لاستفيد علمه ، واعرض عن الثاني لاتقي غشه ، فانا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له ان يفرغ منها في ساعة معينة . ثم علم ان على يمين الطريق التي يسلكها روضة تعتنق اغصانها ، وتشتجر أفنانها ، وأن على يساره غاباً تزأر أسوده وتعوي ذئابه وتفح أفاعيه وصلاله، فمضى قدماً لا يلتفت يمنة مخافة ان يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره ، ولا يسرة مخافة ان يهيج بنظراته فضول تلك السباع المقعية ، والصلال الناشرة ، فتعترض طريقه . وأما عامتهم ، فهم بين ذكي قد وهبه الله من سلامة الفطرة ، وصفاء القلب، وسلاسة الوجدان ، ما يعده لاستماع القول واتباع احسنه ؛فانا احمد الله في امره ، وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه ، فهو لا يرضى الا عما يعجبه ، ولا يسمع الا ما يطربه ، فاكل أمره الى الله تعالى ، واستلهمه صواب الرأي فيه حتى يجعل الله له من بعد عسر يسراً ؟

مصطفى لطفي المنفلوطي

الغد

عرفت اني فكرت ليلة أمس فيما اكتب اليوم ، وعرفت اني آخذ الساعة بقلمي بين أناملي ، وأن بين يدي صحيفة بيضاء تسود قليلاً قليلاً كلما أجريت القلم فيها ، ولكني لا أعلم هل يبلغ القلم مداه او يكبو[1] دون غايته؟ وهل استطيع ان اتم رسالتي هذه،او يعترض عارض من عوارض الدهر في سبيلها ؟ لاني لا أعرف من شؤون الغد شيئاً ، ولان المستقبل بيد الله .

عرفت اني لبست اثوابي في الصباح ، واني لا ازال ألبسها حتى الآن ، ولكني لا اعلم هل اخلعها بيدي أو تخلعها يد الغاسل ؟

الغد شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد ، فربما كان ملكاً رحيما ، وربما كان شيطاناً رجيما ، بل ربما كان سحابة سوداء إذا هبت عليها ريح باردة حللت أجزاءها ، وبعثرت ذراتها ، فأصبحت كانما هي

(١) كبا : سقط على وجهه .

عدم من الاعدام التي لم يسبقها وجود .

الغد بحر خضم زاخر يعب عبابه[1] وتصطخب أمواجه ، فما يدريك إن كان يحمل في جوفه الدر والجوهر ، او الموت الاحمر .

لقد غمض الغد عن العقول ، ودق شخصه عن الانظار ، حتى لو أن إنساناً رفع قدمه ليضعها في خروجه من باب قصره ؛ لا يدري أيضعها على عتبة القصر أم على حافة القبر .

الغد صدر مملوء بالاسرار الغزار ، تحوم حوله البصائر ، وتتسقطه[2] العقول ، وتستدرجه الانظار ، فلا يبوح بسر من اسراره ؛ الا اذا جاءت الصخرة بالماء الزلال .

كاني بالغد وهو كامن في مكمنه ، رابض في مجثمه[3] . متلفع بفضل إزاره ، ينظر الى آمالنا وأمانينا نظرات الهزء والسخريـــة ويبتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء ، يقول في نفسه : لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث ، وهذا الباني انه يبني للخراب ، وهذا الوالد انه يلد للموت : ما جمع الجامع ولا بنى الباني ولا ولد الوالد .

ذلل الإنسان كل عقبة في هذا العالم ، فاتخذ نفقاً في الارض ، وصعد في سلم الى السماء ، وعقد ما بين المشرق والمغرب بأسباب[4] من حديـد ، وخيوط من نحاس ، وانتقل بعقله الى العالم العلوي ، فعاش في كواكبه ،

---

(١) يعب عبابه : يرتفع موجه .
(٢) تسقط الخبر : أخذه شيئاً فشيئاً .
(٣) مجثم الطائر : موضع جثومه ، أي تلبده بالأرض .
(٤) الاسباب : الحبال ، وكل ما يوصل بين الشيئين .